

رواية الأسيرة

اسم الكتاب : رواية الأسيرة
تأليف : د. عاطف سلامة
تنسيق داخلي : رفيق جلول
تصميم الغلاف : شحدة ضرغام
رقم الإيداع : 2026/26280
الترقيم الدولي : 978-977-6918-64-1
الناشر : اسكرايب للنشر والتوزيع

للتواصل معنا

 scribe20199@gmail.com

 +201005079256

 +201099727510

 دار اسكرايب للنشر والتوزيع 



جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار اسكرايب للنشر والتوزيع
لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة
بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

د. عاطف سلامة

رواية
الأسيرة

2026

صباحٌ لا يشبه الصباح

كانت الشمس لا تزال مترددة خلف سُحب تشرين، حين اخترق السكونَ
صريزُ الحديدِ الممزق على بوابة الكيبوتس.

لم يكن الصباحُ عادياً.

لم تكن هي في نوبةٍ حراسةٍ عادية.

كانت ألينا كوفالتشوك، المجندة الإسرائيلية ذات الشعر الكتاني المشدود
بعنف إلى الخلف، تقف خلف البرج القصير قرب السياج الجنوبي
للكيبوتس، تحدّق في الأفق الكالح عبر منظرها الحارّي. عيناها، بلونهما
الرمادي الباهت، لم تريا أكثر من فراغ ضبابي... حتى بدأ كل شيء.

لم تسمع الانفجار الأول.

سمعت فقط صرخة في جهاز الاتصال، ثم هرعت لتبلي النداء.

ركضت، سلاحها يتأرجح على كتفها، حين دوى صوت القذيفة الثانية.

ثم اختفى كل شيء خلف سحابة تراب، ولهيب، وركام.

لم تستفق إلا على صفعةٍ ناعمة - لكنها لم تكن صفعة، بل يدٌ تسحها من
سترتها العسكرية.

— "اصحي... مش وقت نوم."

كان الصوت شاباً.

فلسطينياً.

غامضاً... لكنه ليس قاسياً كما توقعت.

فتحت عينها، فوجدت نفسها في أرضٍ زراعية، خلف سياج ممزق، يحيط به دخان وغبار. شعرت بأن كتفها الأيسر يتزف، وذراعها الأخرى مقيدة بمربط بلاستيكي.

بجوارها، وقف شاب يبدو في أواخر العشرينات، نحيف، وجهه مغطى بالكوفية، وعلى كتفه بندقية كلاشينكوف قديمة.

كان خلفه شابٌ آخر، أكثر هدوءًا، عريض الكتفين، يقود حمارًا يجرّ عربة خشبية عليها صناديق معدنية وعلبة إسعاف ميداني.

وبينهما...

كانت هي.

امرأة.

فلسطينية.

شعرها مربوط بمندبل مائل، وثوبها ملوث بالتراب، لكن عينها لم تترك المجندة منذ اللحظة الأولى.

اقتربت منها، ركعت عندها، وسألت بالعربية:

– "بتفهمي عربي؟"

ألينا لم تجب.

لكن قلبي... فهم.

في أقل من ثلاث دقائق، كانت على ظهر العربة، مغطاة بشادرٍ أزرق، تضغط على أسنانها وتتأوه من الألم، لكنها لا تجرؤ على الصراخ.

قال الشاب الأول، من خلف لثامه:

– "إحنا طالعين فيها من وسط بيت حانون...بموازاة شارع صلاح الدين،
لازم نلحق قبل الطيران."

فأجابه الثاني:

– "أبو سلمى، الطريق إلنا... الله يحميها."

قالت المرأة، ويدها على بطن المجندة:

– "أهم شي ما تموت... خليه يعرفوا شو يعني نخلي وحدة منهم عندنا."

حين بدأوا الدخول إلى غزة...

كانت المجندة تبكي بصمت، لا لأنها أسيرة، بل لأنها، لأول مرة، شعرت
بالضعف كإنسانة.

العبور

لم تكن غزة تنتظر أحدًا.

لكن في ذلك الصباح، فتحت المدينة أبوابها لأغرب قافلة شهدتها شوارعها. عربة كارو خشبية، يجرّها حمار رمادي أعرج، تمضي بثبات فوق شوارع متربة، يعلوها شادرٌ أزرق بالكاد يغطي جسد المجنّدة الإسرائيلية بزيها الكاكي، المقيدة، وأمامها رجلان بملامح ملثمة، وبينهما امرأة تمسك بحبل القيادة وتحقق في الطريق كما لو كانت تقود مركبة مصير.

ومع أول دخان شوهد في الأفق، بدأت البيوت تفتح نوافذها.

ثم الأبواب.

ثم خرج الناس.

طفلٌ صاح أولًا:

— "يا مآاااا! أسير! جابوا أسير!"

ركض، وهو يصقّر ويضحك بجنون، وعيناه لا تصدقان ما ترى.

رجلٌ في الخمسين غطى فمه بكفه وقال لابنه:

— "هديك بنت؟ مجنّدة؟ إشي رسمي هذا!"

عجوز جالسة على باب بيتها صرخت:

— "الله أكبر! والله هادي أيام عز!"

وبكت.

في ثوانٍ، تحوّل الشارع الضيق في حيّ الزيتون إلى ممرٍ للهتاف، للزغاريد، ولخوف مكتوم.

أحدهم صرخ وهو يلوّح بكوفيته:

– "بدها صفقة! بدنا نطلع أسراناً!"

وأخر بجانبه همس:

– "هبل... هبل! بدهم يمسخونا عن الأرض عشائها."

كانت المجندة، رغم الشادر، تسمع.

تفهم.

كلّ شيء.

تعرف لهجة الفرح.

وتشعر بقشعريرة الخوف.

وتسمع تلك الكلمة تتكرر: "صفقة... صفقة... صفقة..."

قال الشاب النحيف، الملتئم، بصوت خافت:

– "أبو سلعى، لف من عند دوّار عسقلولة... خلينا نوصل مشفى الشفاء،

نبدّل السيارة."

أجابه الثاني، الذي لم يكن يتحدث كثيراً، وكان يقود الحمار بعينين

حادتين:

– "لا. خلينا نكمّل للأنفاق. كل دقيقة هان نار."

ألينا، وسط الشادر، كانت تحرق في خطوط الضوء بين الثنيات... رأت السماء.

ثم رآته.

ذلك الطفل.

عمره لا يتجاوز التاسعة.

كان ينظر إليها، لا بالخوف، ولا بالفرح...

بل بدهشة.

دهشة نقيّة.

وكأنّه يسألها بعينه:

"ليش إنتِ هان؟"

ولم تجد إجابة.

في إحدى الزوايا، اقتربت امرأة خمسينية من العربية، نظرت نظرة سريعة تحت الشادر، وقالت صارخة:

— "والله بنت صغيرة! هادي مش عدو! بنت يا ناس... راحوا ولادنا وهمهم ماسكين بنات؟!"

فردّت عليها امرأة أخرى، بجلباب أسود ووجه محترق:

— "بنت؟ بنتك هاي؟ هاي مجنّدة، كانت تحرس كيبوتسنا يا أم سليم. لا تعيطيلها."

وساد الصمت للحظة.

تابعت العربة طريقها بين الأسواق، والطرق، ومداخل البيوت.
كان المشهد يشبه شيئاً من القيامة... لكنه ليس النهاية.
بل البداية.

وفي أقصى الحي، بعيداً عن العيون، فتحت لهم بوابة حديدية.
دُفعت العربة إلى الداخل.
وأُغلقت الأبواب خلفهم.
وهمست "سلى"، المرأة الفلسطينية، وهي تنزل من العربة:
– "من هان تبدأ قصتنا..."

الزلازل

كان كل شيء هادئًا في تل أبيب.

السبت، صباح عطلة.

البحر ساكن، والمقاهي بدأت تفرش طاولاتها على الأرصفة، ورائحة الكرواسون تسير مع النسيم.

ثم دوى الهاتف الأحمر.

في غرفة العمليات بوزارة الدفاع، لم تكن الشاشات تعرض مشاهد روتينية.

بل كابوس.

من الشاشات المتراصة، ظهرت صورُ كتائب مسلحة تجتاح بوابات الكيبوتسات الجنوبية، ودخان يرتفع من المواقع العسكرية الحدودية.

قال الجنرال "ديفيد شتاين"، وهو يحدق في الخريطة بإصبع مرتجف:

— "مش ممكن... كيف مرّوا؟ وين الجيش؟ وين الطائرات؟"

على الجانب الآخر، داخل غرفة العمليات في "كيريا"، دخل وزير الدفاع الإسرائيلي متجهم الوجه، يتحدث بعبرية متلعثمة وهو يضرب على الطاولة:

— "فيه تقارير غير مؤكدة... عناصر من حماس خطفوا جنود... وربما مدنيين... أكرر، عناصر من حماس دخلوا كيبوتساتنا وأسرنا جنودًا!"

سأله ضابط الاستخبارات:

– "كم عددهم؟"

ردّ بصوت خافت، كما لو أنه ينعي شيئاً:

– "لا نعرف... كل الكاميرات تعطلت... في كتسيغوت، وفي ناحال عوز...
بلاغات من مستوطنين بوجود اشتباكات في الشوارع... وبعضهم قال:
أخذوهم."

في المستويات السياسية العليا، لم يكن أحد يعرف ماذا يحدث.

أم هل عرفوا... لكنهم ترددوا في التصديق؟

المذبة في قناة "كان" بدأت البث العاجل:

"أيها المشاهدون، ما نشهده هذا الصباح غير مسبوق... اجتياح بري
واسع... مشاهد لخطف جنود ومدنيين... والمجلس الوزاري المصغر يجتمع
بشكل عاجل..."

وفي موسكو، استيقظت "يفغينيا كوفالتشوك" على اتصال من رقم دولي.

لم تفهم الصوت جيداً، لكن الكلمات سقطت مثل الرصاص:

"ربما تم أسر ابنتك، ألينا... لا شيء مؤكد، لكن اسمها ليس ضمن لوائح
من تم الاتصال بهم."

لم تصخ.

لم تنهر.

بل أمسكت بصورتها، وراحت تهمس:

– "قلت لك لا تذهبي لفلسطين... قلت لك، هذا ليس بلدك..."

وفي نيويورك، حيث لم تكن الحرب تعني أكثر من "خبر"، كان موظفو مجلس الأمن يتداولون مذكرة طارئة:

"اجتماع عاجل لبحث تطورات خطيرة في غزة... أنباء عن أسر عدد من الجنود الإسرائيليين ومواطنين."

وفي الوقت نفسه، ظهر أول تسجيل.

كان مشوشًا.

من هاتف محمول.

لقطة سريعة لمجندة مكبلّة، يسحبها شاب ملثم إلى عربة كارو.

المشهد لم يدم أكثر من ثلاث ثوانٍ... لكنه أشعل الدنيا.

في تل أبيب، اختنق الشارع بالصراخ:

– "وين الجيش؟ كيف صار هذا؟!"

وفي شبكات التواصل، غزت الصور والهاشتاقات:

#جندي_أسر

#أين_ألينا؟

#هجوم_7_أكتوبر

في هذا المشهد المزدحم بالرعب، دخل رئيس الحكومة قاعة الاجتماعات،
رفع عينيه للجميع، وقال:
– "هذا يوم أسود... أسود جداً... لكننا سنُشعل السماء فوق غزة."

وما لم يعرفوه بعد...
أن في أحد السرايب تحت الركاب، فتاةً روسية الأصل، إسرائيلية الهوية،
تجلس مكبلّة، تنظر في وجوه أعدائها...
وتفكر:

"لماذا لم أمت؟ ولماذا لا أشعر بالخوف كما يجب؟"

عيون خلف الجدار

الضوء خافت.

جدار الغرفة الخرساني يشبه جدار قبر.

ولا صوت، إلا صوت تنفسها المتقطع، مقيدًا بالرهبة... والفضول.

كانت ألينا جالسة على الأرض، يداها مقيدتان من الأمام بمربط بلاستيكي، وتحتها فرشاة إسفنجية رثة.

الباب المعدني خلفها أغلقوه منذ ساعات، ولم يدخل أحد.

فقط صوت الماء في الأنابيب المهترئة يذكّرها أنها لا تزال تحت الأرض... حية.

سمعت المفتاح يدور.

وتصلب جسدها.

انفتح الباب...

ودخل هو.

لم يكن ملثماً هذه المرة.

كان شاباً، في بداية الثلاثين، عريض الكتفين، لحيته خفيفة، عيناه سوداوان، وفيهما ذلك التعب المتراكم في أرواح الذين رأوا أكثر مما ينبغي.

جلس يهدوء على بعد مترين منها، دون أن يتكلم.

هي نظرت إليه مباشرة.

في عينيه.

كأنها تتحداه أن يرمش أولاً.

هو لم يرمش.

بل قال، بعربية ناعمة:

— "أنا اسمي يحيى."

لم تجب.

أعاد ببطء، مشيرًا إلى صدره:

— "يحيى... اسمي."

ترددت. ثم قالت بإنجليزية محطمة ولكنة روسية:

— "I don't understand... I... no Arabic."

ابتسم بخفة، كأن في الأمر طمأنينة غريبة.

أخرج من جيبه قطعة خبز، وكيسًا صغيرًا فيه تمر وماء، ووضعها أمامها دون أن يقترب أكثر.

— "كلي... مش سامينهم."

حدّقت في الطعام، ثم به، ثم بالطعام مرة أخرى.

لكنها لم تمد يدها.

سألها بصوت أكثر هدوءًا:

— "شو اسمك؟"

لم تجب.

انتظر.

ثم وقف.

لكن قبل أن يخرج، همست:

– "ألينا... كوفالتشوك".

توقف لحظة.

ثم أوماً برأسه دون أن يلتفت.

وخرج.

في الخارج، كانت "سلى" تنتظره قرب الباب، تمسك بمريولها المشقوق.

– "حكّت؟"

– "قالت اسمها."

– "وشو شعورك؟"

سكت لحظة، ثم قال:

– "عيونها مش خيفة... مش متكبرة... بس فيها شي... كأنها عم تحاول تفهم."

– "بدها تفهم شو؟"

– "بدها تعرف إذا نحنا وحوش... ولا بشر."

نظرت إليه "سلى"، ثم مسحت على كتفه، وقالت:

– "خليها تشوف الحقيقة، بس لا تنسى... هي مش طفلة. هاي كانت تحمل سلاح، تحرس حدود موتنا."

أجابها بنظرة طويلة:

– "وأنا... ما نسيت."

في الداخل، كانت ألينا قد مدّت يدها أخيرًا.

أخذت ثمرة واحدة.

وضعتها في فمها ببطء.

ثم همست لنفسها، بروسية هادئة:

– "الآن بدأ الأسر الحقيقي."

وجهان في العتمة

كان الضوء في الغرفة كافياً بالكاد لتمييز الأشكال.

مصبح أصفر يتدلّى من سلكٍ عارٍ، يرتجف نوره كلما مرّت شحنة كهربائية عشوائية في الجدار.

جلس يحيى في نفس البقعة، على الأرض، دون سلاح، دون قناع، ودون أمر.
قال يهدوء:

— "من روسيا؟"

نظرت إليه ألينا، بتردد، ثم أومأت:

— "نوفوسيبيرسك... مدينة في سيبيريا."

— "برد كثير هناك، صح؟"

هزت رأسها:

— "أبرد من غزة."

ابتسم.

— "بس غزة مش باردة... غزة نار. دائماً."

قالت، بنبرة لم تخفِ سُخريتها:

— "أنا لاحظت."

سكتا لحظة.

ثم سألهما:

– "ليش جيتي؟"

رفعت كتفيها.

– "هجرة... أهلي بدهم حياة جديدة. أبويا يهودي. أخذنا جنسية. كيبوتس
ناحال عوز عرض وظيفة... وأنا دخلت الجيش."

– "وآمنتِ بكل هاد؟"

نظرت إليه مباشرة:

– "وانت؟ إنت بتؤمن إنو خطف بنت رح يحزر وطنك؟"

ارتجف شيء في عينيه.

لكنه لم يغضب.

قال:

– "إنتي مش بنت... إنتي جنديّة... كنتي بتحملي سلاح. بتحسري حدود بيتنا.
لو ما جينا كنا هالأ تحت الأرض... كلنا."

قالت بهرود:

– "أنا ما قتلت حدا."

– "بس كنتي جزء من اللي بيقتلوننا."

ثم أضاف، بصوت أقل حدة:

– "أنا ما بحاول أقنعك... أنا بس بحكي."

مدّت ساقها إلى الأمام، وأراحت ظهرها للحائط، وقالت:

— "أنا درست علم نفس قبل الجيش... باخدك مثال حلو."

ضحك بهدوء.

— "شو يعني؟ أنا حالة؟"

— "أيوه... إنسان عايش في جحيم... ومقتنع إنو الخطف والدم بيوصلوه للحرية."

ردّ وقد غابت الابتسامة عن وجهه:

— "والحرية اللي إنتي فيها... بأي دم انبنت؟"

صمت طويل.

هدير طائرة مرّ فوق رؤوسهم... ثم اهتز السقف قليلاً.

قالت وهي تحديق في السقف:

— "أنا مش مرتاحة."

— "طبيعي. إنتي أسيرة."

— "لا. مش بس عشان هيك... في شي... فيّ جواتي عم يتكسّر."

اقترب قليلاً، لكن دون أن يمدّ يده.

كان صوته أخفّ:

– "يمكن لأول مرة عم تشوفينا... مش من جوة دبابة، ولا من ورا شاشة."

قالت، وفي عينها ارتباك:

– "أنا ما بعرف شو أشوف... بس أنا مش خيفة."

ردّ بصوت أقرب إلى نفسه منه إليها:

– "ولا أنا."

ساد الصمت.

صمت كثيف كأنه بطانية قديمة تفوح منها رائحة الانتظار.

وفجأة... دوى انفجار قريب.

ارتجّت الجدران، وانطفأ المصباح.

ثم...

لا شيء.

إلا أنفاسهما، تتقاطع في العتمة.

الرد

سقط الليل على غزاة بثقلٍ يشبه تابوتًا.

لكنّ العتمة لم تدم طويلاً...

لأن السماء اشتعلت.

صاروخ، ثم آخر، ثم سيلٌ من اللهب.

كأن المدينة كلها دخلت فرناً لا باب له.

في حيّ الشجاعية، لم يكن الناس نائمين.

الأخبار سبقت القنابل.

"إسرائيل ستنتقم بجنون"، هكذا قال المذيع.

لكن لا أحد كان يتوقع الجنون بهذا الشكل.

أول دفعة من الصواريخ ضربت عمارةً سكنية من خمسة طوابق.

ثوانٍ، وانهارت كما ينهار بيت من ورق.

ثوانٍ، وارتفعت صرخات "مين ضلّ؟ مين ضلّ؟"

في مخيم النصيرات، ركضت أمٌ بثوب النوم، تحمل طفلتها، وتركض وسط الشارع، تصرخ:

— "وين أروح؟! وين أهرب؟!"

لا أحد يجيب.

الجميع يركض... الجميع يبحث عن "مكان ليس هدفاً".

لكن لا أماكن غير الأهداف.

في مستشفى الشفاء، امتلأت الممرات بجثث جديدة.

أطباء بلا كهرباء، بلا ضوء، بلا أكسجين.

كان الطبيب "وسيم" يضغط على صدر طفلٍ عمره خمس سنوات، وهو

يهمس:

— "ما تموت... مش وقتك... ما تموت."

في غرفة تحت الأرض، عند يحيى وسلّمى، انطفأ المصباح من جديد.

الرائحة أصبحت خانقة.

سمعوا صوت القصف فوق رؤوسهم.

بدا قريبًا... أقرب من أي مرة.

قالت ألينا بصوت متوتر:

— "هل... هل سيموت كل شيء هنا؟"

أجاب يحيى وهو ينظر إلى السقف:

— "مش أول مرة بنقصف."

قالت بمرارة:

— "بس يمكن أول مرة أنقصف فيها معك."

نظرت إليه... وهو نظر إلى شيء بعيد جدًا.

وقال:

— "مرات... لازم الواحد ينقصف عشان يعرف مع مين كان واقف."

وفي الأحياء الشرقية، كانت الكاميرات توثق انهيار المنازل، الناس،
الأسفلت، كل شيء.

وكان العالم... يراقب.

يستنكر.

ويطلب "ضبط النفس"... بينما النار تلتهم غزة.

في تل أبيب، أعلن المتحدث العسكري:

"بدأنا عملية الرد الساحق... لن نتوقف العملية حتى تحرير كل الرهائن."

لكن في غزة، لم يكن هناك رهائن فقط.

كان هناك أحياء بأكملها تموت دفعة واحدة.

يحيى خرج من الغرفة بعد منتصف الليل، جلس في الزاوية، ومسح وجهه
بكفيه.

كانت سلى تنتظره هناك، عيناها حمراوان من الدخان والتعب.

قالت:

— "رح يمسخونا."

– "أه. بس مش رح نموت ساكتين."

– "شو نعمل فيها؟" (تقصد ألينا)

– "نحافظ عليها."

– "وليش؟"

نظر إليها... ثم إلى الجدار... ثم إلى شيء لا تراه.

وقال:

– "لأننا إحنا مش همّ."

وفي داخل الغرفة، كانت ألينا تسمع.

وتفكر.

وتخاف.

لكن الخوف لم يكن من موتها... بل من شيء آخر، لا اسم له بعد.

الناس

صباحٌ غزّيّ بلا شمس.

الدخان يحجب السماء، والركام يملأ الطرقات.

رائحة البارود واللحم المحترق تسبق الأخبار.

الناس خرجت من بيوتها... أو مما تبقى منها.

الحيّ الذي كان قبل يومين حيّاً، صار كتائباً من الغبار.

في شارع الثلاثيني، تجمّع العشرات عند أطلال مخبِزٍ قصفوه فجراً.

قال رجل نحيل بصوت مبحوح:

— "مشان الله، مشان الله، ليش خطفتوها؟ شو استفدنا؟"

صرخت امرأة ترتدي خماراً أسود:

— "نستفيد شرف! كرامة! هاي أول مرة العدو يشعر إنه مش آمن ببيته!"

قال شاب آخر، يلفّ جرحه بقطعة قماش:

— "وشرفك خلّى بنتي تنحرق تحت الرد؟"

الغضب يشتبك مع الدموع، والدم مع الحيرة.

في حي الرمال، رفعوا صورة الشبان الذين أسروا الجنود.

الناس صفقوا.

واحد من الشباب صرخ:

– "هاي غزة... بدها رجال... واللي صار مش بس عملية، هاي صارت كرامتنا!"

ردّ عليه شيخ ملتجٍ، ينفض الغبار عن عباءته:

– "كرامتنا مش بالخطف... كرامتنا نعيش ونربي أولادنا."

سكت الشارع لحظة.

ثم عاد يضيّج.

في مخيم الشاطئ، كان الأطفال يجمعون شظايا الصواريخ.

قال فتى عمره 14:

– "أنا مع العملية."

سأله صحفي أجني بصوت مرتجف:

– "حتى لو قصفوكم كل يوم؟"

أجاب الفتى، ينظر إليه كمن لا يفهم لغته:

– "إحنا من يومنا مقصوفين... بس أول مرة بنزد."

في سوق الزاوية الأثري، جلس أبو عادل، الرجل العجوز الذي فقد ابنه في قصف الأمس، وأشعل سيجارة بصمت.

اقترب منه شاب وقال:

– "شو رأيك في اللي صار؟"

نفث الدخان، وحدّق في السماء وقال:

– "الي بده حرية، لازم يدفع... بس الله يستر من الأيام الجاية."

بين الأنقاض، وداخل الخيم المؤقتة، انقسم الناس.

قسم قال:

"أسر الجنديّة صفعّة عظيمة... العدو مش حيقدر يتحملها."

وقسم آخر قال:

"الصفعّة رح ندفع ثمنها دم، بيوت، وأطفال."

ولكن في عيون الجميع...

كان هناك شيء لم يتغير:

إحساس قديم أن ما عاد هناك طريق للرجعة.

في الليل، جلس يحيى مع سلى، يتابعون على هاتف مكسور بعض مقاطع من الشارع.

قالت سلى:

– "الناس مش متفكة علينا."

أجاب يحيى بصوت منخفض:

– "الناس مش لازم تتفق. الناس لازم تتحرك."

سألته:

– "وانت... متأكد من كل شي عملتوه؟"

نظر إلى السقف المتشقق...

وقال:

– "أنا مش متأكد من شي... غير إنه لو ما عملنا هيك، كنا حنندفن بكرامتنا، بس بصمت."

وفي داخل الغرفة، سمعت ألينا بعضاً من الحوار.

لم تفهم كل الكلام...

لكنها سمعت الكلمة: "كرامة".

وأدركت، لأول مرة، أن ما جرى...

أكبر بكثير من أن يُشرح في جلسة تحقيق.

الرحيل من الجحيم

أُعلن القرار فجراً، لكنّ النار سبقتة.

"على سكان شمال القطاع أن يغادروا فوراً. جيش الدفاع الإسرائيلي سيحوّل المنطقة إلى منطقة عمليات عسكرية."

كانت النشرات تُلقى من السماء، كالأوراق المسمومة.
والناس... ركضت.

من بيت لاهيا حتى دير البلح، سيولٌ بشرية زحفت على الطرقات الترابية،
على الرمال، على الجسور وعلى الشوارع الالتفافية.

أمهات تحمل أطفالاً نائمين من الجوع.

شيوخٌ يسندون أحفادهم بعكازات مكسورة.

شبان يجزّون عربات الكارو... فوقها ما تبقى من البيوت: لحاف، غاز
صغير، صورتان، ورغيف.

الطريق لم يكن آمناً.

طائرات الاستطلاع كانت ترصدهم.

ثم، فجأة، تركزّ السماء...

وينهار جسراً من الناس.

صرخت طفلة:

— "ماما... وين راحوا الناس اللي كانوا قدامنا؟!"

أجابت الأمّ وهي تغطي عينيها:

– "صاروا طيور يا حبيبتى... عصافير."

قُصفت مدرسة مكتظة بالنازحين.

قُصفت مدرسة ثانية.

قُصفت مدرسة ثالثة.

الناس كانت نائمة فيها.

في مدرسة الفاخورة، استشهد 26 شخصًا، أغلبهم أطفال.

دخل الصحفيون، فوجدوا الدماء على المقاعد، على الحيطان، على جدول
الحصص.

وعلى السبورة:

"درس اليوم: الحواس الخمسة"

لكن الحواس كلها انطفأت.

المستشفيات أيضًا لم تُستثنَ.

في مجمّع الشفاء، انقطعت الكهرباء تمامًا.

المرضى الجرحى، الذين لا يستطيعون الحركة، تُركوا في العتمة.

رائحة الغرغرينا والبارود تزاحم الأوكسجين.

أحد الأطباء قال وهو يبكي:

– "بقينا بلا غازات تخدير... بنبت أرجل الأولاد بدون مخدر... اسألوا العالم، هادا عدل؟"

في كرفان صغير على أطراف خان يونس، اختبأ يحيى وسلى وألينا.

الفتاة الروسية أصبحت ترى الجحيم من جهة أخرى.

قالت وهي تنظر في وجوههم:

– "أعرف أن بلدي مجنون... لكن لم أتخيل أن الجنون يمكن أن يُخطط له."

ردّ يحيى بمرارة:

– "هو مش جنون... هذا نظام."

سألت سلى:

– "لو كنتِ مش أسيرة... كنتِ حيرتي حالك وين تروحي؟"

قالت ألينا، بعد لحظة صمت:

– "كنت هربت لعندكم."

ضحك الثلاثة... لكن ليس من الفرح.

في داخل كل خيمة، كان سؤال واحد يتردد:

"لو نجونا... شو يعني ننجو؟"

وفي كل روح، كانت نبتة صغيرة تنبت:

إِما حقّداً...

أو إيماناً أن البقاء رغم المجزرة... هو نصرٌ بحدّ ذاته.

وبينما انشغل العالم بحساب الأرقام، انشغل طفل غزّيّ صغير برسم
طيارة على التراب، ثم مشى عليها برجليه، وصاح:

– "أنا اللي بقصفهم اليوم!"

ضحك من حوله...

رغم الدموع.

ثلاثة في الجحيم

كان الليل أهدأ قليلاً...

هدوء ما قبل القصف التالي.

لا يعني الأمان، بل فقط... تأجيل الوجع.

في الغرفة الإسمنتية التي لا نوافذ لها، جلست ألينا في الزاوية، ظهرها للجدار، وعيناها تحدّقان في سقفٍ متشققٍ يشبه خريطة غامضة.

على الجهة المقابلة، جلس يحيى وساقاه ممدودتان.

يراقبها بصمت... كأنه يختبر شيئاً ما.

أما سلمى، فكانت تمسح على ذراعها ندبة قديمة، وتقول لنفسها: "مش لازم أتكلم... بس رح أتكلم".

قالت ألينا فجأة:

— "أنا مش مجرمة... تعرفوا هالشي، صح؟"

لم يجب أحد.

أعادت السؤال، بصوت أعلى:

— "أنا كنت في حراسة. ما أطلقت رصاصة، ما لمست طفل، ما دخلت بيت."

قال يحيى بهدوءٍ كمن يقطع حبلاً:

— "بس لبست زيّهم... كنت جزء من ماكينة القتل."

قالت:

– "غصبًا عني. لازم أخدم، هاد قانونهم. ما كان عندي خيار."

قالت سلى وهي تنهض:

– "كلّهم بيحكوا هيك. كلّهم مجبورين. وكلّنا بندفن أولادنا غصبًا عنّا كمان."

اقتربت من ألينا، وجلست قبالتها، وأكملت:

– "زوجي اللي جابك، اللي حميتوه مع يحيى... استشهد بعد يومين من العملية. بقصف مباشر على الدار. مش لأنه مقاتل... بس لأنه فلسطيني."

أطرقت ألينا رأسها، ثم قالت:

– "أنا آسفة... ما بعرف إذا بيكفي، بس أنا آسفة."

وبكت

ردّت سلى بسرعة:

– "الأسف ما برجع وجهه."

دخل يحيى على الخط، بصوته الخفيض كالسكاكين:

– "بدك ايانا نصدق دمعتك؟ آه، يمكن صادقة. بس دمك علينا، دم جيشك، دم نظامك، دم احتلالك. دم القانون اللي بتحكي عنه."

رفعت ألينا رأسها، نظرت فيه:

– "ولو كنت مكاني؟ لو كنت يهودي، روسي، وعائش في كيبوتس، ومربيك النظام إن العربي = عدو؟"

سكت.

ثم قال:

– "أنا؟ كنت حكيت لا."

ضحكت بسخرية:

– "سهل تقول هيك وانت هون، بين الركام. بس مش كل الناس بتقدر تقول لا وهي جوه القطيع."

قالت سلى:

– "الي جوه القطيع... بيصير ذئب حتى لو ما عضّ حدا."

ساد صمت... لكن ليس هدوء.

كل واحد منهم يسمع صوته الداخلي كأنّه صراخ.

ألينا، للمرة الأولى، تشعر بالعار.

عار مزدوج:

أنها كانت جزءاً من هذا، وأنها بدأت تفهم الطرف الآخر... وتكره نفسها لأجل ذلك.

قالت فجأة:

– "أنا مش مع إسرائيل."

نظر فيها يحيى نظرة طويلة، ثم قال:

– "بس إسرائيل كانت معك."

ثم نهض، أخذ بطانيته، وخرج إلى ممر ضيق مظلم.

سلمى تبعته بعد لحظات، وهمست له:

— "مش حاسّة إنه كرهانة حالها؟"

قال دون أن يلتفت:

— "بس ما بكفي إنها تكره حالها. بدها تكسر حالها... وتعيد تركيبه نفسها من جديد"

وفي الداخل، جلست ألينا وحدها.

وضعت يدها على قلبها، وشعرت بشيء ينبض لأول مرة، ليس خوفًا، وليس وطنًا، بل سؤالًا جديدًا:

"هل يمكن أن أخرج من هذه الغرفة شخصًا آخر؟"

أم أنني كنت دومًا هذا الشخص، لكنني لم أعرف؟"

وهم الانتماء

كانت السماء تنذر بعاصفة، لكن العاصفة بدأت في الداخل أولاً.
جلس الثلاثة حول صفيحة نارٍ خافتة، يحاولون خداع البرد أكثر مما
يحاولون النجاة من القصف.

ألينا قالت، بصوت لم يسبق له أن خرج منها من قبل:
— "أنا مش يهودية."

كأن القصف توقف لحظة.

كأن الجدار تشقق.

قالت سلى، وهي تحدّق فيها بذهول:

— "شو قلتي؟"

أجابت ألينا، وهي تغوص أكثر في الحكاية:

— "أنا روسية... بالكامل. أمي من موسكو، وأبي من نوفوسيبيرسك. بعد ما
وقع الاتحاد السوفيتي، صرنا فقراء... مثل الفئران. أبي كذب... قال إنو عنده
جذور يهودية قديمة. ما حدا دقّق. إسرائيل كانت عم تلمّ كل شي اسمه يهودي
من العالم."

قال يحيى، وعيناه تلمعان بنظرة مزيج من الصدمة والغضب:

— "يعني دخلت على هاالأرض بكذبة؟!"

قالت:

– "مش بس دخلت... نشأت. تربيت بكذبة. كبرت وأنا أقنع نفسي إني وحدة من الكمبيوتر. بحكي عبري، بلبس زيهم، بروح احتفالاتهم، بس... دايماً كنت حاسّة إني غريبة."
صمت.

ثم تابعت، وصوتها يهتز:
– "في الجيش... كانوا دايماً يذكرونني إني مش زيهم. كنت الروسية. بنت الفودكا. اللي ما عندها دم إسرائيلي حقيقي."
قالت سلى، وعيناها لا تزالان على النار:
– "بس حملتي سلاحهم. ودخلتي أراضيها."
قالت ألينا، كأنها تتوسّل الفهم:
– "ما كان في مكان أروّح عليه. ما كنت أنتعي هناك... ولا هنا. كنت ماشية مع القطيع... بس قلبي ضايع."

فجأة، اشتد صوت الطائرات فوقهم.
ارتجّ السقف.
ثم دوى انفجار قريب، سقط الغبار من الجدران.
قال يحيى، وهو ينهض بسرعة:
– "لارم ننقلها لمكان ثاني... واضح إنهم بلشوا يمشطوا المنطقة."

قالت سلى:

– "راح نقدر نتحرك بهالوقت؟"

رد:

– "لازم نقدر."

لكن ألينا لم تنهض.

قالت، بثبات غريب:

– "إذا متّ اليوم، راح أموت وأنا بحكي الحقيقة... مو وأنا لابسة قناعهم."

ثم نظرت في عيني يحيى وقالت:

– "إنت يمكن تكرهني... بس انت أول إنسان حسّيت معو إني مش عدَم."

شهق الهواء.

في الخارج، انطلقت سيارات الاسعاف في منطقة مجاورة.

يحيى اقترب منها، أمسك بذراعها:

– "ما راح تموتي اليوم. مش قبل ما نعرف الحقيقة كلها."

قالت:

– "ما فيش حقيقة كاملة يا يحيى... في نص حقيقة في كل واحد منّا."

سلى كانت تراقبهما بصمت.

عينها على وجه "ألينا" الذي صار أكثر بشرية، وأكثر ضعفًا.

قالت ببطء:

— "كلنا مش كاملين... بس انك تحكي، تعترف، هاي شجاعة."

ثم أضافت، بابتسامة مزّة:

— "بس الشجاعة مش دايمًا بتنجّي."

في تلك الليلة... لم ينم أحد.

وفي الصباح، بدأ التحرك الكبير.

اجتياح بري. دبابات على مشارف المدينة. تمشيّط كامل. تفتيش بيت بيت.
غرفة غرفة.

الاختباء لم يعد ممكنًا طويلًا.

والأسئلة لم تعد فلسفة.

الآن: من يستحق أن يعيش؟

ومن يقرّر من يُعدم، ومن يُسامح؟

ومن يُحبّ... وسط كلّ هذا؟

الضيق

الساعة الرابعة فجرًا.

سما غرة ليست سما.

إنها مرآة سوداء تعكس وجوه القتلى.

صوت الدبابات يقترب...

صوت الأرواح تبتعد.

في الملجأ الصغير الذي شُقَّ بين جدارين خلف منزل مهذّم، وقف يحيى،
يحدّق في فتحة السقف، ثم التفت نحو سلمى وألينا وقال:

— "ما عاد في وقت. لازم نتحرك."

قالت سلمى:

— "المكان الثاني بعيد، بنمرّ من شارع مكشوف."

ردّ:

— "أهون من الموت هون. كل البيوت اللي حوالينا صار فيها جنود... ممكن
يفتحوا علينا بأي لحظة."

كانت ألينا تقف وقد لقت رأسها بكوفية سوداء، لكنها رغم التمويه، كانت
لا تشبه شيئًا في المكان.

قالت بتردد:

— "أنا عبء... خذوا بعض وخلّوني."

صرخ فيها يحيى:

— "اسكتي!"

ثم بصوت أخفض، أكثر حرقة:

— "أنتِ... سبب المجازر، بس كمان صرتِ جزء منّا... غصبًا عنّا."

نظرت فيه، وقالت بصوت مبحوح:

— "ما بدي أكون سبب نكبة جديدة."

قالت سلمي وهي تدس مسدسًا صغيرًا في جيبيها:

— "لو ما فيك أمل... كان يحيى تركك من أول يوم."

خرج الثلاثة تحت جنح الظلام.

أزقة ضيقة.

أحذية تغوص في الطين.

رائحة الموت معلّقة في الهواء كالدخان.

من شارع لآخر، من ظل إلى ظل، ومن حائط إلى كومة حجارة...

أصوات الجنود كانت تقترب.

أوامر عبر المايكروفونات:

"أي حركة تُقابل بالقتل."

"استسلموا فورًا."

"كل منطقة شرق شارع صلاح الدين... منطقة عسكرية... منطقة قتال"

وصلوا إلى حارة صغيرة، أمامهم كان بيت قديم متهاك.

قال يحيى:

— "هاد هو. بنرتاح شوي جواه. بعدين نكمل."

لكن فور اقترابهم من الباب، سمعوا صوتًا.

خطى.

حديث عبري.

سلمى أمسكت يد ألينا، دفعتها خلف الجدار.

يحيى سحب سلاحه، قلبه يدق كما لم يفعل منذ اليوم الأول.

ثم...

صوت طلق ناري!

لم يكن منهم.

صرخة من بعيد.

ثم صمت.

قالت سلمى وهمسها مرتعش:

— "أحد الجيران حاول يهرب... قتلوه."

يحيى صكّ أسنانه، وصرخ في صمته:

"اللعنة!"

في تلك اللحظة، خرج طفل من فتحة في الجدار المجاور.

عمره لا يزيد عن عشر سنوات، في يده دمية محروقة.

وقف يحدّق فيهم، ثم همس:

— "في نفق... تعالوا. من هون."

قال يحيى بدهشة:

— "أنت مين؟"

قال الطفل، بابتسامة غريبة لا تشبه الأطفال:

— "أنا من اللي ما ماتوا."

تبعوه.

زحفوا خلفه في فتحة صغيرة خلف جدار الحمام.

نزول، ظلمة، ثم بقايا نفق مهجور.

الرطوبة تأكل الجلد، والصمت فيه حياة.

قالت ألينا وهي تلهث:

— "أنا خائفة... بس مش من الموت."

نظر فيها يحيى، لم يجب.

لأول مرة...

بدأ يشعر أن الخوف صار مشتركًا.

خرجوا من النفق في أطراف الحي، المدينة وراءهم...

والقادم لا يُعرف بعد.

لكن القرار قد اتُخذ:

لن يتركوها.

ولن ينجو كلهم.

لكن سيجربون.

ما لا يُقال

الليل ثقيل.

كأن الزمن نفسه يريد التوقف.

كانوا قد احتموا في قبو مدرسة مهذّمة.

الطبشور على الجدران

وأسماء الأطفال لا تزال تملأ الأركان

لكن لا أحد هنا إلا ثلاثة:

أخ وأخته... وأسيرتهم.

سلمى كانت تنام عند الباب، سلاحها على صدرها، عيناها نصف مغلقتين.

أما يحيى، فجلس مقابل "ألينا"، بينهما شمعة ضعيفة، وضوء خافت جعل وجهيهما أشبه بلوحتين معلّقتين على حافة الانفجار.

قالت بصوت خفيض:

— "ليه ما قتلتنوني؟"

ردّ بدون أن ينظر إليها:

— "يمكن... لأننا تعبنا من القتل."

سكتت، ثم تابعت:

— "ولا لأنك... بدّك تفهمي؟"

التفت نحوها ببطء.

قال:

— "أنا مش متأكد إذا بدي أفهمك... ولا أكسر شي فيك."

نظرت إليه مطوَّلاً.

ثم قالت:

— "وأنا... مش متأكدة إذا بدي أعيش."

كلمتها لم تكن اعترافاً باليأس، بل بشيء أعمق:

ذلك التمزق الداخلي حين يصبح البقاء عقوبة... وليس نعمة.

قال يحيى، وعيناه تلمعان بضوء الشمعة:

— "بس هيك بتعيشي. كل يوم. ليه؟"

أجابت، بعد صمت طويل:

— "عشان صوتك..."

رفع حاجبيه:

— "صوتي؟"

قالت:

— "لما تحكي... بحس فيني أرجع أكون إنسانة. مو مجنّدة. ولا أسيرة. ولا

روسية، ولا إسرائيلية."

خرجت سلى من نومها الجزئي.

قالت بحدة:

– "إلينا... لا تلعبى بالنار."

ألينا نظرت إلها وقالت بهدوء:

– "ما بلعب. النار جوّاي أصلاً."

يحيى تدخل، محاولاً تفكيك التوتر:

– "خلينا نرتاح... الصبح لازم نتحرك تاني."

لكن سلى لم تسكت، عيناها على أخها:

– "مش مرتاحة. في شي غلط. وهي بتحاول تدخل..."

قاطعتها ألينا:

– "أنا ما بدخل... أنا غرقانة أصلاً."

مرّت لحظات من الصمت... ثم قالت:

– "بتعرف، يحيى؟

أنا بحلم فيك كل ليلة.

مش كحبيب...

ولا كعدو.

بس كوجه...

كصوت...

كظل ما بينطفئ."

قال بصوت متهدج:

— "ما بعرف شو هذا..."

بس بعرف إني بأشوفك كل يوم

وبحس إني قاعد بخسر اشي...

أو يمكن بأسترد اشي ما كنت أعرفه عني."

سلمى حدّقت فمهما، قلمها يغلي، عقلها يرتجف:

— "إذا ضعّفنا... بنموت.

إذا تعلّقنا... بنخسر.

ما في مساحة للحلم يا يحيى."

قال مهدوء:

— "مش قاعد بأحلم.

أنا بأتنقّس."

تلك الليلة... لم يقل أحد كلمة أخيرة.

لكن في ظلال القبو، نشأت لغة لم تُكتب، ولم تُفهم، بين أسيرين لا يعرفان
من أسر من.

في الحروب، لا تنتصر البنادق دائماً...

أحياناً، تُربكك النظرة أكثر من الرصاصة.

تحت الجدران، فوق الجحيم

في الليلة التي انشطر فيها القصف إلى ثلاثة، واشتعلت المدينة من الشرق
حتى البحر، كان يحيى وسلى وألينا قد أدركوا شيئاً واحداً:
الاختباء مات.

الحركة وحدها تحمي.

في تمام الساعة الثانية فجراً، انهارت جدران الطابق الأول من المدرسة.
ارتجّت الأرض، واختنقت الأنفاس بتراب ساخن كالنار.
سلى صرخت:

– "إنكشف المكان! لازم نتحرك فوراً!"

يحيى سحب ألينا من يدها:

– "في نفق ورا الساحة... إلحقيني!"

كانوا يجرون والضوء من حولهم يُقطع السماء.

صواريخ.

صوت رصاص في كل اتجاه.

نداءات "النجدة" تتداخل مع نداءات الاستغاثة التي لا أحد يسمعها.

وصلوا إلى فتحة خلف خزان المياه القديم، ركضوا داخله، لكن مع أول انحناء، انهار سقف حجري، وسقط خلفهم!

سلمى ويحيى في طرف، ألينا وحدها في الطرف الآخر!
صوتها، خلف الركام:

– "يحيى؟!"

رد، وهو يضرب الحجارة بيديه:

– "استني! شوية بنرجعلك!"

لكن صوتًا آخر قادم من النفق المظلم قال:

– "ما رح تقدر... لازم تهربوا."

كان فتى صغير، لا يتجاوز الرابعة عشرة، يحمل سلاحًا بالكاد يوازي جسده.

قال:

– "الدوريات بتفتش الإنفاق. في مخرجين فقط. واحد هان، والثاني آخر النفق عند السوق."

قالت سلمى:

– "لازم نلاقيها."

لكن يحيى وضع يده على كتفها:

– "سلمى... لازم ننقسم. إذا بقينا مع بعض... بنتتهي."

أنا بروح إلحقها. وإنّ كَمَلّي مع الولد."

نظرت فيه طويلاً...

وقالت:

– "بدك ترجع؟"

همس:

– "لازم."

قالت وهي تمسك يده بقوة:

– "رجعها... أو لا ترجع."

مشى يحيى كالأعمى في النفق المعتم.

يخبط يده في الجدران، ينادي:

– "إلينا! إلينا!!"

حتى سمع صوتها، من بعيد:

– "أنا هون!"

ركض نحوها، فتح يديه،

رآها تجلس عند الجدار، مغطاة بالغبار، دامعة العينين.

قالت:

– "ما فكرت إنك ترجع."

ردّ وهو يلهث:

– "كنت أركض إليك قبل الركام ما ينهار."

في تلك اللحظة، لم يكونا عاشقين.

ولا أعداء.

ولا سجينين في مأساة.

كانا مجرد اثنين في الهامش الأخير من الأرض.

شريان الأرض

النفق.

حين يراه العدو، يراه ثقبًا في الجحيم.

لكن حين تدخله، تفهم أنه ليس مجرد ممر، بل خريطة نفسية كاملة
لنجاة شعب.

كان النفق يمتد من الشرق إلى الغرب ، وصولاً من تحت حي الرمال إلى تل
الهوى، يتفرّع كالأوردة...

كل تفرّعة تؤدي إلى قرار.

أحدها يوصلك إلى بيت قديم.

آخر ينتهي تحت فرن آلي مهجور.

ثالث يفتح إلى خزان مياه، ورابع... إلى غرفة مظلمة لا تفتح إلا من الداخل.

يحيى شرح لآلينا وهو يمشي:

— "هدول مش بس ممرات. هاي حياتنا الثانية."

قالت بدهشة:

— "كأنكم تعيشون تحت الأرض أكثر مما فوقها."

أجاب:

— "تحت الأرض... ما في قناص. ما في طيارة."

بس كمان... ما في شمس."

مرّا عبر نفق ضيق بالكاد يتسع لجسد.
الجدران إسمنتية، لكن محفورة يدويًا...
بصمات الأصابع لا تزال على السقف.
قالت وهي تلمس الحائط:

— "فيه نبض هون... كأن الناس حفروه وهم يبكوا."
قال:

— "أحيانًا... الدم كان هو اللي يحفر."

في غرفة جانبية صغيرة، جلسا يلتقطان أنفاسهما.
سألت ألينا:

— "كم نفق زي هاد موجود؟"
قال:

— "ما حدا بعرف."

يمكن أكثر من عروق اليد.
كل منطقة إلها شبكة.

وكل شبكة إلها خريطة... ما بيشوفها إلا ثلاثة أو أربعة أشخاص فقط."
قالت:

– "كأنكم صنعتُم مدينةً ثانية... في البطن."

ضحك، لأول مرة منذ أيام:

– "مدينة... إلها قلب، بس ما إلها عيون."

وقبل أن يكمل، اهتزّ الجدار، وانطفأت الإضاءة المؤقتة.

ثم صوت من جهاز اللاسلكي:

"في اختراق بالمنطقة الشرقية.

مداخل النفق صارت معروفة.

افصلوا الشبكات، وغيّروا الاتجاه."

نظر يحيى إلى ألينا.

قال:

– "رح نكمل... بس من طريق ما مشيناها قبل."

قالت بابتسامة مرتعشة:

– "طالما إنت معي... بمشيها."

وهم يسIRON، كانت غزّة تهتز فوقهم...

لكنهم تحت الأرض...

يشكّلون خيط حياةٍ لا يُرى، ويُعاش

طفلان في ضفتين

الهواء في النفق أصبح أثقل.

ليس لأنه انعدم، بل لأنه يحمل ذاكرة.

ألينا جلست إلى الجدار، ظهرها إليه، نظراتها غارقة في بقعة لا أحد يراها غيرها.

يحيى كان يضبط أجهزة الاتصال، ثم توقف حين سمعها تهمس:

– "كنت أكره الزفت اللي بسمّوه صباح في الكيبوتس."

نظر نحوها، لم يقل شيئاً.

تابعت:

– "كل صباح، نفس الطابور. نفس النشيد. نفس الأعلام اللي لازم نرسمها.

بس ولا مرة حدا سألني إذا أنا... فعلاً، إلي علاقة بهالبلد."

سألها بهدوء:

– "كنتِ قديش بالعمر؟"

– "سبع سنين... يمكن أقل.

كانوا يطلبوا نكتب عن "الوطن".

كتبت مرة:

الوطن هو جدتي اللي ضلّت بروسيا."

ضحك ضحكة قصيرة، مستغربة.

قال:

– "وشو صار؟"

أجابت:

– "المعلّمة مزّقت الورقة. قالتلي:

هذا وطنك الآن، مش روسيا.

انسي جدتك."

سكتت لحظة، ثم تابعت:

– "رجعت البيت أبكي، سألت أُمي:

ليش نحنا هون؟

قالتلي:

عشان نعيش."

ثم قالت بنبرة فيها مرارة:

– "بس نحنا ما عشنا. نحنا تحوّلنا لشي بيمشي حسب القانون.

حسب البندقية.

وحسب النشيد اللي بيقول: "لا وجود لهم."

كانوا يقصدوا... أنتم."

يحيى أزاح نظره عنها، كأنه لم يحتمل ثقل كلماتها.

قال:

– "أنا كمان كنت طفل..."

بس كنت اسمع جدتي تقول:

حتى اللي ضربنا، يمكن يكون جوعان."

نظرت فيه بدهشة:

– "جدتك؟"

– "كانت أمية. ما بتعرف تكتب ولا تقرأ."

بس كانت تقول لي:

إذا بدك تعيش، لازم يكون قلبك أوسع من قبرك."

سكتا.

ثم سألهما فجأة:

– "شو أكثر شي خلاك تكرهي الكيبوتس؟"

أجابت بعد تردد:

– "يوم شفت ولد فلسطيني..."

واقف برا السياج.

كان بس ينظر. ما قال شي. ما تحرك.

بس العيون... كانت بتقول مليون كلمة.

واحد من الحراس صوب بندقيته عليه.

قلت له: لا تطلق.

قال:

هو مش ولد. هو تهديد."

شهقت شهقة خفيفة، ثم قالت:

– "بكيت أول مرة.

بكيت من جوا...

لأني حسيت إني أنا كمان تهديد. وأنا... كنت عمري تسع سنين."

قال يحيى، ونبرته مشبعة بالحنين:

– "أنا كان عندي خال...

كان يشتغل في ورشة بناء داخل الخط الأخضر.

لما يرجع، يجيب لنا خبز محمص ويقول:

العامل أحنّ من السلاح."

ضحكت ألينا، ضحكة فيها رجفة:

– "وشو صار بخالك؟"

– "انقصف وهو ناظر تصريح جديد."

سكتنا مرة أخرى.

لكن هذا السكوت كان مشتركاً.

كأنهما للمرة الأولى، سمعا صوت طفولتهما يتعانقان في نفق لا ضوء فيه،
لكن فيه صدقٌ... لا يتلَوْن.

قالت ألينا:

– "بتعرف؟

أنا كرهت الدولة قبل ما أحبك."

صُدْم، لكن لم يُظهر شيئاً.

سألها:

– "وحبتي؟"

قالت بصوت يكاد يُهمَس:

– "مش كحبيب.

كمراًة... بوقف أمامها... وبتشوفي بدون سلاح."

وفي النفق، كان طفلان من زمنين، يتبادلان الدمع...

بدلاً من النار.

الحدّ الفاصل

كان فجر اليوم السابع والثمانين من الحرب قد بدأ رمادياً.
لا شمس تُشرق في غزة بعد الآن، بل سُحب رمادية كأنها أبخرة الموتى.

اهتزّ سقف النفق ثلاث مرات متتالية، ثم دوى صوت الانفجار من فوقهم
كزلزال قديم قرر العودة.

يحيى أمسك الجهاز، فتح التردد المشفر، وسمع:
- "عملية شاملة... كل الشمال، كل الوسط، حتى مفترق أبو مدين.
لا أحد يبقى. الخروج جنوباً فوراً."
جاءه الصوت التالي أكثر خشونة:
- "اقصفوا أي شيء يتحرك فوق الأرض.
العدو فقد أعصابه."

سلمى كانت أول من استوعب:
- "يعني... ما عاد في نفق آمن؟"
يحيى أغلق الجهاز وقال:
- "ولا حتى خُطوة آمنة."
ألينا كانت في الزاوية، تنظر في اتجاه الجدار، لكن وجهها لم يعد كما كان...

صار أكثر "تراّبًا"، أقل "عسكرية".

قالت بهدوء:

– "إذا خرجنا... بنموت.

وإذا بقينا... بننتهي."

ردّ يحيى بسرعة:

– "بس إذا خرجنا جنوبًا، في احتمال.

ما بنعرف إذا بيسمحوا، بس ما في غيره."

سألته سلمي:

– "والناس؟ كيف رح نطلع بينهم؟"

سكت لحظة.

ثم قال:

– "مقتّعين.

نخلّي وجهها مغطى... زي وحدة مصابة.

والباقي... على الله."

في لحظة ما، ساد الصمت في الغرفة.

ثم قالت ألينا فجأة:

– "أنا ما بدي أهرب."

التفتا إليها.

كانت عيناها متصلبتين، مشعتين بشيء غريب.

تابعت:

— "أنا تعبت أكون شيء يجب إخفاؤه..."

ما بدى أكون سرّ بعد اليوم."

اقتربت سلمى منها، بهدوء أشبه بالغضب:

— "هذا مش وقت مواقف بطولية يا ألينا.

هذا وقت ننجو."

قالت ألينا، والبكاء يرتجف خلف كلماتها:

— "نجوت كثير.

من الحرب، من الجوع، من الحقد، من وطني اللي مش وطني...

بس ما نجوت من نفسي."

أمسك يحيى كتفها، وقال:

— "رح نحميك.

بس لازم نمشي."

سألته:

— "واذا مسكونا؟"

قال:

— "بنقول انك فلسطينية.

مصابة.

ما معهم وقت يدققوا."

ضحكت ضحكة قصيرة، ثم قالت:

— "أول مرة بحياتي... ممكن أكون فلسطينية."

تجهزوا.

سلمى لفت شألاً رمادياً حول وجه ألينا.

وضعت شريطاً أبيض حول يدها...

كأنها من ضحايا إحدى الغارات.

يحيى أمسك حقيبة خفيفة، وضع فيها بطارية جهاز، ونسخة صغيرة من المصحف، وعلبة تمر، وسكيناً.

ثم قال:

— "من هان، بندخل وبنصل للشارع المقابل.

إذا قطعناه، بنصير قرب شارع صلاح الدين.

ومن هناك... إلى الجنوب."

سألته سلمى:

— "وإذا شافونا؟"

رد وهو يفتح باب النفق الحديدي:

— "بنصير زي الناس... ماشيين، منتظرين..."

وبنقول: إحنا كمان ما إلنا بيت."

خرجوا.

الأرض لم تعد كما كانت.

لا بيوت، بل أشباح بيوت.

لا شوارع، بل خنادق من الحطام.

أصوات الصواريخ في السماء، صرخات من زوايا غير مرئية.

كانوا ثلاثة.

كل واحد منهم يحمل هوية هشة، وصورة في داخله لمن كان... ولمن قد لا يعود.

وهم يعبرون الطريق إلى الجنوب، كانت غزة تُحرق من الوريد إلى الوريد.

وكان القلب، رغم الخوف، يدقّ على إيقاع شيء يشبه الرجاء.

الفصل السابع عشر: "عطب في النبض"

لم تكن الشمس قد طلعت، ولا الليل انسحب.

كان العالم عالماً بين فجرين:

فجر الضوء، وفجر الدم.

خطواتهم كانت بطيئة.

ليس خوفاً فقط، بل لأن الطريق نفسه أصبح متاهة من الحطام.

كل حجر يمكن أن يخفي تحته شهيداً، أو عبوة، أو ذاكرة لا يُحب أحد أن يراها.

وصلوا أطراف حي الزيتون.

المكان بدا كأنه مدينة في فيلم أبيض وأسود، كل شيء فيه محطم، إلا القطط التي لا تموت.

فجأة، وقع الصوت.

صرخة أنثوية مدوية... ثم صوت طفل يبكي... ثم انفجار قريب! تسمروا.

نظر يحيى خلف جدار منخفض، ثم قال بسرعة:

– "في ناس عالقين تحت الردم.

حرام نتركهم."

ردّت سلعى، ووجهها يتقلص من الرعب:

– "بس إحنا مكشوفين!

وألينا معنا!

ما بصير!"

قالت ألينا، وقد رفعت الشال عن فمها:

– "خليني هون.

روحوا."

قال يحيى:

– "لا ... كلنا مع بعض."

ركض الثلاثة نحو مصدر الصوت.

امرأة تصرخ، ابنها تحت لوح إسمنتي.

رجل يحاول رفع الحجارة وحده، وجهه مدمى.

صرخ يحيى:

– "ابعد!

معي سكين. بنحاول نكسر الحديد!"

ركعوا كلهم، ألينا ساعدت سلمى في رفع طرف الحطام.

يحيى أدخل السكين في فتحة بين اللوح والحديد، ودفع بكل قوته.

مرّت دقائق طويلة...

ثم فجأة، وقع الشال عن وجه ألينا.

المرأة التي كانت تبكي صرخت:

– "مَن هي هاي؟!"

تجمّد الوقت.

الطفل نجا... لكن اللحظة احترقت.

الرجل المدمى نظر نحو ألينا، ثم إلى يحيى، ثم سحب قطعة حديد صغيرة من تحت أنقاض قربه.

– "هاي مش مّا!

هاي واحدة منهم!!"

وقف يحيى بسرعة، رفع يديه:

– "مش عدوة!

هاي كانت أسيرة... بس أنقذت ابنك.

شفت؟!

كانت معنا... وساعدت."

صرخت سلمى:

– "لو لم تتدخل، ابنك كان مات!"

الرجل توقف.

أنفاسه كانت تصطدم بالهواء كالرصااص.

ثم فجأة...

أسقط قطعة الحديد.

قال بنبرة مشروخة:

— "ابني ما بعرف شو يعني "يهودي"...

بس بيعرف شو يعني "حدا أنقذه".

أعاد يحيى الشال حول وجهها، وقبل أن يغادروا، قالت ألينا بهمس خافت:

— "كان ممكن يقتلني..."

بس ما قتلني."

أجاب يحيى، وهو يشد على كتفها:

— "غزة ما بتقتل وهي تعرف إنك إنسانة..."

بس الله يستر من الجاي."

*في ذلك الصباح الرمادي، نجا الطفل من الركाम، ونجت ألينا من
الشبهة...

لكن شيئاً ما انكسر في الداخل.

لم تعد الحرب حرباً فقط، بل شبكة من القلوب المرتجفة

تمشي فوق الجمر... وتحاول ألا تكره.

بيت بلا سقف... وكلام بلا غطاء

وصلوا إلى الحي الشرقي من دير البلح، منطقة "أبو العجين" بعد ثلاث ساعات مشي، ومناورة بين الشوارع المهدومة لمخيبي الريح والمغازي، وأصوات الطائرات التي تُحدّق في الأرواح كما يُحدّق القنّاص في بؤبؤ العين.

البيت الذي وجدوه لم يكن بيتاً، بل هيكلًا إسمنتياً تحطّم نصفه، وظل نصفه الآخر واقفاً كما تقف شجرة مجروحة في حقل من الرماد.

قال يحيى:

– "خلينا نرتاح هان شوي... قبل ما نكمل."

دخلوا.

الهواء في الداخل كان غباراً صافياً، ورائحة دم قديم وملابس محترقة. سلمى جلست في الزاوية، وأسندت رأسها إلى الجدار، لكن عينيها ظلّتا على ألينا، ترصدان كل حركة، كل نفس.

ألينا جلست قرب مدخل الغرفة.

خلعت الشال، مسحت عرقها، ثم قالت بهدوء:

– "أنا آسفة."

لم ترد سلمى.

قال يحيى:

– "آسفة ع شو؟"

قالت:

– "ع كل شيء.

عن كوني أنا.

عن وجودي اللي خرب عليكم كل شي."

هنا، انفجرت سلمى.

– "خرب علينا؟!

انتي فاكدة إنو كل الخراب اللي صار بسببك؟

ولا ناسيه إنو آلاف ماتوا وانتِ قاعدة بهالنفق محمية؟!"

نهضت واقفة، عيناها تشعان غضبًا:

– "أنا ما نسيت أخوي اللي استشهد ولا زوجي اللي لسه دمه سخن، ولا

أمي اللي بترت رجليها تحت القصف ، ولا ابن الجيران اللي دفنوه بقاع الدار
عشان ما في مكان."

ألينا نظرت إليها بثبات:

– "أنا ما قتلت حدا."

– "بس كنتي جنديّة!"

صرخت سلمى.

– "كنتِ تحملي سلاح!

تدافعي عن جيشِ احتلنا، قتلنا، هدم بيوتنا!"

تدخل يحيى، لكن ببطء... كان يعرف أن هذا الحوار لا يمكن قطعه.

قالت ألينا:

– "كنت مجتدة بالإجبار.

أبويا سجّلنا كمهود عشان نهرب من روسيا.

بس أمي ما كانت يهودية، ولا أنا ما كنت يهودية... ولا أمنت بهم."

تقدّمت خطوة، أضافت:

– "الكيبوتس اللي عشت فيه؟

أنا ما شفت فيه حب... بس شفت أسوار."

قالت سلى، بصوت أقل حدة:

– "بس لما دخلنا عليه... كنا نشوف صور الأطفال اللي ماتوا...

صور الجثث اللي تخلّفت عن الغارات.

بتقوليلي ما شفتي؟ ما سمعتي؟ ما عَرفتي؟!"

هنا، تحرك يحيى ببطء وجلس بينهما.

قال، كمن يُعلن عن هدنة:

– "سلى، هي شافت.

بس كل واحد فينا بيدشوف الجحيم بطريقته."

سألته سلمي، ودمعة ثقيلة تهبط من عيناها:

— "بتثق فيها؟"

تردد.

لكن ألينا هي من أجابت:

— "أنا ما بطلب ثقة."

بس بطلب... إنك تشوفي الإنسان اللي داخلي.

مش الزبي العسكري اللي خلعتة، ولا الدولة اللي ما اخترتها."

سكتت سلمي، ثم قالت بصوت خافت، موجّه إلى نفسها أكثر من أي أحد:

— "كلنا ضحايا لشيء ما..."

بس في ناس بتنزف بصمت، وفي ناس بتنزف وهي ماسكة سلاح."

في ذلك الهيكل المحطّم، لم يكن هناك سقف... ولا يقين، فقط ثلاث أرواح
تجلس على ركام الكلمات

وتحاول أن تُعيد تعريف: من هو العدو؟

خط العرض الأخير

كان الصباح رمادياً.

لا شمس... ولا ظل

كأن الضوء ذاته أصابه خوف ما، فكان له أثر بالغ على آلية الانسحاب.

مَرَّوا بمنطقة "القرارة" وصولاً إلى "الزنة"، شرق خان يونس.

أطراف خضراء احترقت وبيوت مطحونة

كأن زلزالاً مرّ، لا قذائف.

الجنوب بدا خراباً...

الجنوب لم يعد جنوباً.

كان غباراً وأرتالاً من النازحين، أقدامٌ تمشي دون وجهة، وعيونٌ تبحث عن شيء غير موجود:

أمان.

قال يحيى وهو يتفحص اللافتة المائلة:

— "الخطّ الفاصل قدامنا بخمس شوارع..."

بس في نقطة تفتيش طيّارة بتتحرك."

ردّت سلى، وهي تمسح العرق والتراب عن جبهتها:

– "والينا؟

كيف بدنا نمرقها؟"

التفتت إلينا، نظرت إلى الطريق، ثم نظرت في عيني يحيى وقالت:

– "أنا لازم أوقف هون."

سكت الجميع.

قالت إلينا بصوت ثابت:

– "وصلتوني لهون... بس إذا مشيتوا فيي، رح تنكشفوا.

وجودي صار عبء عليكم.

أنا بقدر أضل هون... ممكن تخفوني بخيمة، بأي مكان.

بس انتو لازم تعيشوا."

قال يحيى:

– "لا تلاعبينا دور الملاك، إلينا."

نظرت إليه، بحدة خافتة:

– "أنا مش ملاك.

أنا حقيقة مشوهة...

وأكثر شي بخاف منه هو إنكم تموتوا عشاني."

اقتربت سلمى منها لأول مرة دون عدااء:

– "وإذا موتنا كان بدونك؟

بتفتكري انك رح تنجي؟

اسمعي... العدو مش إنت.

ولا نحنا.

العدو هو كل شي حطنا بهذا المكان."

تأملت إلينا وجهها طويلاً...

وقالت بهدوء:

– "أكثر شي غريب فيكم... إنكم مش حاقدين قد ما توقعت."

اقتربوا من نقطة التقاطع.

جرافة تقطع الطريق.

جندي يُمسك جهاز اتصال.

صرخات من بعيد.

غبار يصعد.

ثمّ جاء القرار، لا كبّوح، بل كضربة سكين على الخريطة:

يحيى قال:

– "لازم نقسم... أنا بأخدها عن طريق التفاف من الغرب، وإنّ يا سلمي
كملي من الطريق الزراعي لحالك.

بنلتقي في رفح في منطقة تل الزهور ... بعد يومين."

اعترضت سلمي:

– "لا تروح لحالك معها!"

قال لها، وابتسامة تعب ترسمها لحيتها:

– "أنا اللي جبتها... وأنا اللي لازم أكمل.

وإذا ما رجعت... بتعرفي شو عملي."

ثم همس في أذنها:

– "خبي صور أمي... وقوليلها إني حاولت."

وفي لحظة من الزمن، صمت العالم، كأن شيئاً ما فُقد على الطريق، كأنّ
خطاً دقيقاً من الثقة رُسم وسط الرماد، وراح يمدّ ظلاله جنوباً... نحو
الجنوب الذي لا يشبه أي جنوب.

ظلّ العين

كان الطريق الغربي رملياً، مخنوقاً بالأشواك المتسلقة وبقايا شظايا محرّثة في الأرض.

يحيى وإلينا يمشيان متلاصقين خلف سور مهجور، تحت سقف من السكون المرعب.

قالت إلينا بصوتٍ خافت:

– "ما بيوجعك تكون هيك هارب؟

مش قائد.

مش مقاتل."

ابتسم يحيى، وهو يتفحص السماء:

– "أكثر الوجع إنك تضلّ حيّ وتشوف الكل بيموت...

بس بعدين بتفهم إنك صرت مسؤول عن كل شيء:

عن العيشة... وعن النجاة."

توقفت.

نظرت إليه، بعينين تبحثان عن معنى:

– "وأنا؟

بتشوفني مسؤولة؟

ولا ندم؟"

قال:

– "إنتِ... فتحة صغيرة بضوء العتمة.

حتى لو كانت من جهة العدو."

وصلوا إلى نقطة مفتوحة، مكشوفة من ثلاث جهات.

السماء زرقاء، لكنه الزرق الذي يُبشّر بالنهاية لا بالحياة.

يحيى رفع يده فجأة:

– "اثبتي!"

إلينا جثت أرضاً فوراً، دون سؤال.

صوت زنين... لا يُسمع، يُحس.

كأن الهواء نفسه ارتجف.

قال همساً:

– "طائرة استطلاع.

قناص إلكتروني على الأرجح."

تناهى إلى سمعهم طنين صغير كذبذبة تائهة في الأذن.

سحباً جسديهما تحت كومة تراب وحاوية محروقة.

الوقت صار ثقیلاً.

كل ثانية قطرة عرق، وكل نفس يُمكن أن يكتب عليه "موقع مستهدف".

همست إلينا وهي تُحاول أن تُبقي رأسها أسفل حافة الحاوية:

— "هلاً فهمت كيف بتعيشوا هون..."

تحت المراقبة.

تحت اليد الحديدية.

قال يحيى، وهو يراقب بقعة من الضوء تتحرك بعيداً:

— "بس حتى وهي بتراقبنا..."

ما بتعرف شو جواتنا.

سكت، ثم أضاف:

— "بتعرفي شو؟"

كل الطائرات هاي... ما بتشوف الخوف الحقيقي.

— "ليش؟" سألته.

قال:

— "لأن الخوف الحقيقي مش في حركة الجسد، الخوف الحقيقي... في اللي

ساكن في القلب، ولسا ما صار دمة."

فجأة، دوّت طلقة.

غرزت في الأرض قرب الحاوية.

ثانية.

طلقة أخرى...

أقرب.

لم يصرخا.

لم يتحركا.

يحي أمسك بيدها... يهدوء غريب.

ثم قال:

– "لما أقولك تركضي، تركضي.

ما تطلعي لورا.

ما تفكري."

همست:

– "وانت؟"

قال بابتسامة مائلة:

– "أنا صوتي أسرع من الرصاص."

عدّ:

واحد...

اثنان...

ثلاثة...

ركض.

صوت الرصاص لاحق الهواء، لكنه لم يلمس سوى الذعر.
سقطت إلينا خلف ساتر إسمنتي، تبعها يحيى وهو يلهث، ضاعطاً على
كتفه.

– "أصبت؟!"

أشار بيده:

– "خدش... بس لازم نكمل قبل ما يرجعوا."

في ذاك الظل، لم تكن الخطورة في الرصاص، بل في النظرة... في تلك
اللحظة التي ينكشف فيها قلبك أمام العدو، ولا تدري بعد... من العدو؟ ومن
الحليف؟

وجهٌ لا يُشبه الموت

الجنوب...

كلمة تشبه الماء حين يُقال عنها في غزة.

تبدو واحة، لكنها قد تكون فجًا.

سلمى كانت تمشي وسط قافلة من النازحين، حفاة، مرضى، عجزة، أمهات
يحملن حقائب أكبر من صدورهن.

الطريق لم يكن طريقًا...

كان جرحًا مفتوحًا يمشي عليه الناس.

عند أحد التفرعات الترابية، اختارت أن تسلك ممرًا جانبيًا... بعيدًا عن
عيون الطائرات، وأقرب إلى ظلال الجدران.

كانت تمسك صور أخيها يحيى في جيبيها، وتعيد تكرار جملته الأخيرة:

– "إذا ما رجعت... بتعرفي شو عملي."

لم يكن في بالها أن تراه.

لكن الموت، كما يبدو، لا يستأذن أحدًا ليكون المفاجأة.

عند انحناءة في الطريق... عثرت على جسدٍ ممدّد، تغطيه بطانية سوداء،
تحتة بقايا دم جاف، وحول الجسد... لا أحد.

اقتربت ببطء، وقلبيها يطرق صدرها.

سحبت البطانية قليلاً.

ثم تجمّدت.

لم يكن يحيى.

لكنّ الوجه...

كان يعرفه قلبها.

"حسين."

همست... ثم جلست على الأرض كمن تلقى صفعه من الكون.

حسين... زوجها.

الذي خرج معهم في السابع من أكتوبر، وهناك تفرقوا.. ولم يعد.

كان عائداً، إذًا.

لكن الرصاص سبقه إلى الباب.

شريطٌ من الذكريات طاف بعينيها:

ضحكته تحت المطر.

يده وهي تحمل طفلهما الصغيرة قبل أن تُقتل.

وجهه حين ودّعها ذات فجر...

وقال لها:

– "أنا مش خايف من الموت، بس خايف تموتي لحالك."

سقطت على ركبتيها، ولم تبك.

ثم وجدت تحت جسده شيئاً مطوياً...

كُتِبَ صغير... مدونة.

فتحتة.

"سلمى، إذا قرئت هذا الكلام... يعني وصلت."

"لو أنا متّ، فاعرفي إنك كنتِ النبض الوحيد الي كان بيخليني أكمل."

"وقولي ليحيى... خبيتها منيح."

وقفت.

الريح تعصف في الممر.

أغلقت المدونة.

غطّت وجهه ثانيةً.

همست:

– "هديك خبيتها منيح..."

بس وجعك ما بعرف وين أخبيه."

وفي لحظةٍ، فهمت سلمى... أن الجنوب ليس مخرجًا، بل امتدادًا آخر
للحصار...

وأن الخسارات لا تنتهي حين نموت، بل حين لا نجد من نروي له الحكاية.

ليس بعد

كانت الليلة ثقيلة كجسدٍ مكسور.

الهواء مشيع برائحة البارود، والمكان الذي احتفى فيه يحيى وإلينا داخل
ركام مبنى مهذّم، لا يقي من المطر، ولا من القصف، لكنه - لوهلة - أوحى
بأنه نهاية الطريق، أو بدايته.

في تلك الزاوية، جلسا متقابلين.

لم يفصلهما سوى جدار مشقوق ونَفْسٌ متقطّعة.

قالت إلينا، وهي تضم ركبتيها إلى صدرها:

- "لو ما صارت الحرب... بتفكّر كنا ممكن نلتقي؟"

ضحك يحيى، ثم ردّ:

- "أصلاً كنا راح نكون على طرفين من الحاجز..."

أنا بتفقدك من منظار، وإنّي بتفتشيني على البوابة."

- "بس كنا راح نضحك؟" سألتّه، وتسَلَّلت نظرة باهتة من عينيها.

- "ما بعرف..."

يمكن، بس مش هيك الضحك... مش ضحك النجاة.

ضحك الحياة العادية."

صمتٌ.

ثم...

ذلك الصوت.

"ززززز..."

الصوت الرقيق الذي يعرفه كلّ من عاش في غزة:

طائرة انتحارية صغيرة.

مجنّحة، لا تُخطئ، اسمها على الأرض: "الزنانة القاتلة".

همس يحيى:

– "إجت الطائرة".

رفع عينه إلى فتحة في السقف، ثم انتبه لوميض أحمر قربها.

– "في شي غريب".

لم يكمل.

صوت صراخ آلي:

"تحذير: منطقة محظورة... ستُقصّف خلال دقيقة".

جملة واحدة فقط.

ثم بدأت العدّ التنازلي.

ثانية.

ثم الثانية.

قال يحيى:

– "إلينا... اطلعي فوراً. من المخرج اللي وراك."
– "وانت؟! صرخت.
– "في نفق قديم تحت هالركام... بس ما بدخله إلا جسم خفيف."
ثم ابتسم:
– "يعني إنتي."
صرخت فيه، وهي تتراجع نحو الفتحة:
– "لو صارلك شي..."
قاطعها:
– "لَسّا مش وقت الكلام.
بس تذكرني:
لو متت... ما بنتهي."
ركضت.
ركضت كما لو أن الهواء صار ناراً.
في اللحظة التي دخلت فيها الممر الضيق خلف الأنقاض، انفجر المبنى
خلفها.
لا صراخ.
فقط صوت التفكك.
ثم... سكونٌ قاتل.

حبست أنفاسها.

اختبأت بين جذوع إسمنتية، والرماد يتساقط عليها كثلج رمادي.

نادت:

– "يحيى؟!!"

لا إجابة.

– "يحيى!!!"

لكن لا أحد.

صوت الريح فقط، ورجفة في الأرض.

جلست.

أغمضت عينيها.

همست:

– "مش هالأ... لا تموت هالأ."

ثم وضعت يدها على صدرها.

كما لو أنها تحفظ داخلها صوته.

في ذلك الركام، كانت الحياة تختبرهم:

أيهم يستحق البقاء؟

وأيهم يتحوّل إلى ذاكرة؟

الأثر

الهدوء الذي تلا القصف لم يكن راحة.
بل كان جحيماً آخر.
إلينا جلست في ظل الركाम، الغبار غطى وجهها، وذراعاها ترتجفان دون وعي.
كانت الدقائق تمرّ كالعقوبة.

"يحيى..."

كررت اسمه، بصوت لم يسمعه أحد.
ربما لا أحد بقي لسمع.
فجأة، سمعت ارتطاماً خفيفاً بالحجارة من جهة الخلف.
التفتت.
حركة بطيئة...
كأن أحدهم يزحف من باطن الأرض.

مدّت يدها.

ثم...

برزت أصابع سوداء من تحت لوح خرساني مهترئ.

كفّ!

أصابتها رعشة.

— "يحيى؟!"

لم يجب أحد.

لكن اليد تحرّكت من جديد، كأنها تقول: أنا هنا... لكني لست كما كنت.

ركضت إلى حيث خرجت اليد.

بدأت تحرّك الصخور، بجنون، بجنون لا يملكه سوى من فقد كل شيء.

وبينما كانت ترفع قطعة إسمنت كبيرة، صدر أنين خافت...

ثم صوتٌ أجش، مقطّع:

— "كنت... عارف إنك راح... ترجعي."

لم تصدّق.

انهارت على ركبتيها، وضغطت وجهه الذي بدأ يخرج من تحت الركام.

— "إنت حيّ؟ إنت... حيّ!!"

كان يحيى حيًّا، لكن وجهه ممتلئ بالشظايا، وإحدى عينيه مغلقة بدم متيبّس.

قال وهو يسعل:

– "الفتحة... اللي حكيته لك عنها، تحت الدرج... كانت أضيق مما توقعت.

بس دخلت نصي."

ابتسم ابتسامة دامية.

– "الركام خبّاني... والوجع ظل صاحي."

ساعدته على الزحف، وهي تهمس في كل خطوة:

– "مش هالأ... مش راح تموت هالأ."

حين جلس إلى جانبها، قال:

– "فكرت خلص... انتهت قصتنا."

نظرت إليه إلينا، وابتسمت بمرارة:

– "يمكن لسه ما بدأت."

صمتا.

ثم فُتحت سماء الليل فوقهما...

طائرات، وصرخات بعيدة، لكن القلبين في تلك اللحظة كانا في مكان آخر.

أحيانًا، لا يُثبت أحدنا أنه حيٌّ إلا حين يكون قريبًا جدًا من الموت، وأحيانًا، لا نكتشف من نحب إلا حين نراه محطّمًا... ويحاول أن يبتسم.

التي لم تصدّق الموت

كانت السماء في الجنوب تمطر غبارًا، لا مطرًا.
والوجوه متربة، والعيون مكسوة بالسؤال.
لكن سلى، وسط آلاف الأجساد التي تمشي، كانت مختلفة.
كانت تمشي عكس الجميع.

عند أطراف رفح، حيث قالوا إن الموت يسكن، وقفت وسلمت جسدها
للريح، ثم رفعت عينها نحو الشمال، وقالت لامرأة مستّة بجانبها:
– "أنا راجعة."

رفعت المرأة حاجبها، كأنها سمعت جنونًا.

– "راجعة؟! على وين؟!"

– "على الركّام اللي خلفني فيه يحيى..."

ثم مشّت.

سلى لم تصدّق موته.

رغم ما أخبرها الناس، ورغم أن إلينا لم تظهر، ورغم أن المكان قُصف بكل
حقّد ممكن.

مشّت وهي تحمل مدوّنة حسين بجيها، وصورة قديمة تجمعها بيحي،
حين كانا طفلين يتشاجران على آخر قطعة شوكولاتة في العيد.

قالت في سرّها:

– "أنا ما خسرتّه مرتين."

على مشارف خربة العدس ، وصلها همسٌ من متطوع إسعاف:

– "قصّف كبير صار عند "مراج" في الطريق الغربي...

بس لقوا إشي غريب...

علامة مرسومة بإصبع على الأرض."

نظرت إليه بدهشة:

– "شو يعني؟"

– "حرفين بالعربي... (س) و (ي)."

اهتز قلبها.

س وي.

سلى... يحيى.

علامتهما القديمة منذ الطفولة...

كانا يكتبانها سرّاً على جدران الحارة حين يغضبان من أمهما.

تسارعت خطواتها.

حتى إنها نسيت تنفّسها.

وفي موقع قريب من الخبر، رأَت الدخان... ورأت حفرة كبيرة، ورأت بقعة
دموية صغيرة...

لكن لا جثث.

اقتربت من حائط جانبي مائل.

هناك... على رماد بارد، رأَت الحرفين.

كُتبا بلون ترابي باهت... لكن لا يخطئ القلب حبره.

جثت على ركبتيها، ولم تبك.

وضعت كفّها على الحرفين، ثم همست:

– "إنت لسه حي..."

بعرف."

ثم نظرت نحو الركام.

في داخل كل قلبٍ مكسور، توجد بصمة نجاة.

لا يرى أثرها إلا من أصرَّ أن لا يدفن الأمل... حتى لو دفن الجميع.

الرسالة التي لم تُرسل

ظلت سلمي تمشي.

من شارع لشارع، ومن ركाम لركام،

تسأل، تفتّش، تسند ذاكرة على أخرى، كأنها تطرّز الحياة بإبرة من نار.

عند بائع ماء مكسور الكتف، توقّفت.

— "سمعت شي عن شاب وفتاة خرجوا من قصف بطن السمين؟"

نظر إليها الرجل بعين نصف مغلقة:

— "ما سمعت، بس في حدا... صحفي متخفي، قال إنه لقي دفتر صغير

جنب الركام، فيه شي غريب."

تجمّدت.

— "دفتر؟! كيف شكله؟!"

— "أسود... مربعات... وفيه كلمات مش مفهومة."

عرفت فورًا.

مدوّنة يحيى.

التي لم يتركها يومًا.

ذهبت إليه.

كان شابًا يحمل كاميرا داخل كيس رزّ.

في بيته المهذوم نصفه، جلس وأخرج من حقيبة مهترئة دفترًا مغبرًا.

مدّ يده نحوها:

— "هذا هو... بس ما فهمتش شي.

كلو رموز وشفرات."

أخذته سلى كأنها تعانق قلبها.

في إحدى الصفحات، كانت هناك عبارة قصيرة

مكتوبة بخط يعرفه قلبها قبل عينيها:

"إن صرْتُ دخانًا، اتبعي الريح."

تحتها، سهم صغير مرسوم باتجاه كلمة واحدة:

"حنّون."

"حنّون"؟

نظرت إليه.

ثم تدكّرت:

بيت قديم في شارع حنّون كانا يختبئان فيه في طفولتهما

حين يتخاضمان مع أبيهما.

ركضت.

ركضت كأن الوقت انقلب سكينًا.

وصلت البيت...

كان نصفه مهدوم، والنصف الآخر منهار.

لكن...

من خلف جدار مشقوق، خرج صوتٌ ناعم... غير مألوف.

– "مين؟"

تجمدت سلى.

– "أنا... سلى."

صمت.

ثم... خطوات.

ثم... صدى صوت مألوف.

– "سلى؟!"

انهارت على الأرض.

هي لا تحلم.

هذا صوته.

صوت يحيى.

ثم خرج من خلف الحائط، مقيد الذراع، مجروح الوجه، لكن عينيه...

عينيه ما تزالان تتوهجان بالعناد.

قالت وهي تبكي:

– "كنت عارفة... كنت متأكدة إنك ما متّش."

جثا إلى الأرض أمامها، ووضع جبينه على يدها:

– "أنا ما رجعت عشان أنجو... رجعت عشانك."

ومن خلفه، خرجت إلينا.

ملفوفة ببطانية فلسطينية، وصامته كأنها تعلم أنها تشهد على لحظة ليست لها.

الذين لا يُصدّقون الموت، أحياناً هم من يخلقون الحياة من جديد.

العبور الأخير

في الداخل، حيث لا تصل الأقمار الصناعية، ولا تعترف الحرب بخرائط،
جلس الثلاثة على أرض البيت المهدم
تحت قوسٍ من الركام ونصف قمر.
سلمى، يحيى، وإلينا.
ثلاثة يتقاسمون بعض التمر وبعض الماء
ثلاثة ظلال... بثلاث مصائر.

– "الخطئة بسيطة"، قال يحيى وهو يضغط على جرح في خاصرته، "لكن
تنفيذها جنون".

نظرت إليه سلمى، "يعني مثل كل قراراتك السابقة".
ضحك. ضحكة مكسورة.

– "الأنفاق القديمة المتفرعة من شارع مصبح الرئيس... فيها فتحة مهجورة
بتوصل تقريباً لطرف الطريق الساحلي. بس المشكلة... إنو مش معروف إذا
لسة صالحة أو لا".

إلينا، التي كانت تراقب بصمت، قالت:

– "وإذا كانت غير صالحة؟"

– "بنموت". قالها ببساطة كأنما يحكي عن كوب شاي مسكوب.
سلمى:

– "وليش ما نستنى؟ يمكن يهدأ الوضع؟"

يحيى نظر إلى الخارج، حيث كانت السماء تعوي.

– "سلمى... الي بي فكر ينجو من هالعاصفة، لازم يمشي ضدها."

اقترب من الجدار الخلفي، وحفر بأصابعه التراب المتجمّع، حتى ظهرت صفيحة معدنية نحيلة، طرقها ثلاث مرات.

صوت أجوف.

– "تحت هاي... فتحة الهروب."

قالت إلينا، بوجهها المتصلب:

– "بس إذا مشينا كلنا... وصادفونا؟ مين راح ينجو؟"

لم يجب يحيى.

لكن سلمى نظرت إلها بعمق، وقالت:

– "النجاة مش هي الهدف..."

ثم التفتت ليحيى:

– "بدنا نكمّل... حتى لو بس نحكي قصتنا."

صمتوا.

وكأن الجواب وُلد الآن.

الخطّة:

تنزل سلمى أولاً، تتحقّق من استقرار النفق.

يحيى يرافق إلينا في الخلف، كونها لا تعرف الخريطة تحت الأرض.

إذا انهار شيء، تعود سلى فوراً وتخرج من الفتحة الخلفية التي لا يعرفها سوى يحيى.

بينما كانوا يجّهّزون أنفسهم، مدّ يحيى لإلينا قطعة خبز صغيرة، وقال:

– "هذا من الأمس... بس لسه يشبع الروح".
أخذتها، لم تأكل.
قالت بهدوء:

– "أنا... ما كنت أستحق شي من كل هذا".
سلى نظرت إليها نظرة طويلة.
ثم قالت:

– "يمكن... ولا إحنا كنا نستحق نحب اللي قتلونا.
بس هي الحكاية، مش عادلة من الأصل".
انزلت سلى في النفق أولاً.
ثم تبعها يحيى وإلينا بعد خمس دقائق.
رائحة التراب والموت والمطر القديم، كلها كانت في الداخل.
الظلام دامس.

والصمت كأن تحته قبيلة.
وفي أول انعطاف داخل النفق، توقف يحيى فجأة.
– "سمعتوا؟"

صوت... ارتجاج خافت.

قد يكون انهياراً... أو أحداً... أو مصيدة.

سلى تمتت:

— "تذكر شو قلت؟ نجاة ولا رواية؟"

— "رواية." همس يحيى.

الذين اختاروا أن يكملوا القصة، لم ينتظروا خاتمتها.

بل صاروا هم الخاتمة.

الظل الذي لا اسم له

التراب يتساقط من السقف.

أنفاسهم ثلاث...

لكن الصوت الذي تردد في العتمة كان رابعًا.

سلمى توقفت أولاً.

أضواء بقداحة صغيرة.

الشعلة المرتعشة رسمت نصف وجه إلينا، وخلفها ظهر الفراغ... كأنه فم
كهف مفتوح على سرّ.

يحیی همس:

— "ما حدا يتحرك."

في العمق...

بين تشققات الجدران الترابية...

كان هناك شيء يتنفس.

ليس حيوانًا.

وليس حجرًا يتدحرج.

سلمى:

— "يحیی... هذا مش وهم؟"

هو لم يجب.
اقترب، وجثا على الأرض، ووضع أذنه على التراب.
وفجأة، ضجّت الأرض.
انهيار صغير من الجهة الخلفية.
صرخت إلينا.
وتدافع التراب.
سلمى صرخت:
– "ارجعوا!"
لكن يحيى دفعها:
– "لا! لقدّام! لازم نعدي المنعطف!"
ركضوا في العتمة، بين أنفاسهم وأنين الخوف، حتى وصلوا إلى تجويف
جانبي...
نُحت منذ زمن ليكون مخزنًا للمياه.
هناك...
وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع شبح.
ليس وهماً.
ولا عدوّاً.
بل رجل، بثياب متسخة، وعينين واسعتين كأنهما رأتا القيامة.

قال بصوت مبحوح:

– "مين إنتو؟"

سلى شهقت:

– "إنسان؟"

هو أوماً:

– "ناجي... من أول القصف... ما قدرت أطلع. مع أني بأعرف الطريق."

يحيى اقترب منه:

– "من وين بتعرف؟"

– "كنت حفرت النفق هاد... بإيدي."

ظلّ الرجل يلهث، ثم جلس على الأرض وقال:

– "إذا ناويين تطلعوا... لازم تعرفوا شي."

نظر إليهم، ثم تابع:

– "المخرج من هان مسدود... بس في مخرج خلفي، ما بعرفه غيري."

يحيى اقترب أكثر:

– "وين؟"

ابتسم الرجل ابتسامة مشقوقة:

– "بس لازم حدا يبقى هان، يقف مكاني... يسند هذه الدعامة الحديد...
عشان ما ينهار الممر الأخير."

سكت.

الجملة هبطت كقنبلة.

إلينا:

– "يعني حدا... حيظل هون؟ ويموت؟"

هو قال:

– "أو حدا... ينهار عليه النفق قبل ما يطلعوا الباقين."

صمت.

وكل ما في النفق صمت معهم.

كان القرار معلقًا في هواء راكد.

لكن الزمن لم يتوقف... وكان الحسم آتياً.

يحيى نظر إلى سلى، ثم إلى إلينا. ثم جلس... وأخرج ورقة من جيبه.

نصف محترقة.

كتب عليها شيئاً

قال:

– "في حال ما طلعتنا كلنا..."

هاي تنعطى لأي حد يضل."

لا تُقاس الشجاعة بمن خرج...

بل بمن قرر البقاء، ولم يُرغم.

بعض الطرق لا تَحتملُ أكثرَ من خُطوةٍ واحدة

النفقُ ضيقٌ، والهواء ثقيلٌ كأنه يحملُ في صدره ألف قرار لم يُتخذ بعد.
لكن الوقت...

لم يَعِد صديقهم.

في التجويف الترابي الصغير، جلس الأربعة:

سلى، يحيى، إلينا، والرجل الغامض الذي بات اسمه الآن يشبه النفق ذاته... لا أحد يعرفه، لكن الجميع مرّ به.

يحيى مدّ نظره في وجوههم وقال:

– "إحنا قدّام خيار صعب... ومش لازم يكون تضحوي زيادة عن اللزوم.

الرجل راح يفرجيننا المخرج البديل... بس لازم الدعامة تنمسك بزاوية معينة، وإذا تركناها تمّهار الفتحة... على الكل."

سلى:

– "بنمسكها سوا، بنثبتها بشي، حجر، قضيب حديد، أي شي!

الرجل حرك رأسه ببطء:

– "جريت كل هاد. الدعامة رخوة... وميلها صار زاوية موت. لازم جسم بشري يضغطها بثقل ثابت."

صمت.

ثم...

قالت إلينا:

– "أنا أبقى."

الجملة خرجت منها كأنها لم تكن تفكر، كأنها خرجت من طبقة لم تعرفها هي من نفسها.

سلمى نظرت إليها بحدة:

– "انتي مجنونة؟!"

– "لا. أنا فقط... مررت بما يكفي لأعرف أن الخروج لا يعني النجاة."

ضحك الرجل الغامض وقال:

– "صايرة غزة بتحكي روسي، وبتفكر فلسطيني."

لكن يحيى قاطعهم:

– "ما راح نخلي حدا يموت، بقرر لحاله."

ثم نهض، واتجه نحو الزاوية حيث الدعامة تتمايل.

وقف هناك، وأسند ظهره إليها.

قال بهدوء:

– "أنا صاحب الخيار. ما بدي نقاش."

صرخت سلمى:

– "لا! مش إنت! مش بعد كل هاد!"

إلينا تقدمت نحوه، وعيناها لا تصدقان:

– "مش إنت اللي لازم تضحي... مش بعد ما أنقذتني ألف مرة."

لكنه لم يتحرك.

قال وهو يمدّ لها قطعة الورقة التي كتب عليها منذ قليل:

– "خدي هاي. فيها خريطة الجزء الأخير. وفيها... كلمتين للي بيقراً القصة بعدنا."

بدأ التراب يسقط ببطء، كأنه يتعاطف.

فجأة...

صوت ارتجاج.

الدعامة تهتز.

الرجل الغامض صرخ:

– "ما في وقت! لازم تطلعوا... هلاً!"

لكن قبل أن يهبّوا، ركضت إلينا فجأة.

دفعت يحيى بقوة جانبية.

أسقطته أرضاً بعيداً عن الزاوية.

هي الآن التي تسند الدعامة.

قالت:

– "أنا... مشيت كثير بخطاياكم، وحان الوقت أوقف وحدي."

صرخ يحيى:

– "إلينا! لا تعملِي هيك!"

قالت:

– "قلبي... روسي. بس حلمي... صار يشبه حلمك."

سلمى كانت تبكي... لأول مرة.

لكنها أمسكت بيد يحيى، وجرتّه

قالت:

– "إذا بدنا نكمل... لازم نخلي التضحية حقيقية."

مشوا.

ببطء.

والنور الأخير خلفهم... امرأة تبتسم في الظلّ.

ليس كل مَنْ بقي في الظلام... فشل في الوصول للنور، بعضهم... صار هو
النور.

النور الرمادي لا يكشف، بل يعري

الخروج لم يكن كما تخيّل.

لم يكن هناك ضوء صافٍ، ولا سماء زرقاء تبشّر بالحياة.

بل رماذٌ عالقٌ في الهواء، ونهارٌ كأنه سقط عن سريرهِ مبكراً ولم يكمل النوم
خرجا من الفتحة الضيقة للنفق، سلمى أولاً، بعدها يحيى، وكلاهما كان
يجرّ شيئاً أثقل من الجسد...

الذكرى.

كان المكان أرضاً مفتوحة على الفراغ، البيوت أشباح، والطرق تنزف
تراثاً.

يحيى وضع يده على جبهته، يحجب الغبار، وقال:

– "هاي المنطقة... كانت مرة اسمها حي الجنينة."

سلمى نظرت حولها، بعينها بقايا نور، وقالت:

– "والناس؟"

لكن لا أحد أجاب.

ولا ظلّ حتى يجيب.

خطوا خطواتهم الأولى على الأرض المحاصرة...

وركبتا سلمى ارتجفتا.

قالت:

– "كنت أفكر إنو الأمل بيبكون بعد الخروج... بس بحسّ إنو تركناه ورا."

يحيى مشى بصمت.

في يده لا شيء سوى الورقة التي كانت مع إلينا.

فتحها، وقرأ السطر الأخير بخطها المرتجف:

"أنا ما هربت من بلدي... لكّني وجدت وطني في وجوهكم."

قال:

— "إلينا ما كانت عدوّتنا... كانت مرآتنا المكسورة. شفنا فيها أنفسنا، لكن من زاوية ما عمرنا طلّعنا منها."

وصلا إلى تلّ ترابي...

وهناك، في أسفله، كانت عشرات الأجساد ممددة... مغطاة جزئيًا بالغبار.

بعضها مقلوب الوجه، وبعضها يحمل ملامح خائفة... توقفت عند صرختها الأخيرة.

سلمى همست:

— "النجاة... مش دايماً انتصار."

اقترب يحيى من إحدى الجثث...

ركع.

قلب الجسد.

ثم تجمّد.

عيناه لا تغمضان.

قال بصوت لا يشبهه:

– "هذا... علاء."

سلمى وضعت يدها على فمها.

علاء... أخي.

رفيقهم الرابع.

الذي افترق عنهم منذ السابع من أكتوبر.

سقطت على ركبتيها، عيناها تفيضان دون صوت.

قال يحيى:

– "كان عم يدور علينا... أكيد كان بدو يلاقينا."

صمت.

الغبار كان يلقيهم ككفن.

ثم، من بعيد، دوى صوت طائرة.

عالية...

لكنها لا تقصف.

مجرد مراقبة.

عدسة في السماء.

سلمى همست:

– "لا تطوّل يا يحيى... ما بقى فينا نهرب."

قال:

– "ما رح نهرب. بس رح نوصل."

ثم نظر نحو الجنوب...

حيث الضباب يحمل احتمالاً واحداً:

الحقيقة.

الحقيقة لا تكون في نهاية النفق، بل في من خرج، وفيمن بقي، وفيمن صار
جزءاً من جدار الصمت...

ليس لأنه اختار، بل لأنه آمن أن ثمّة من سيحكي الحكاية.

وما لم يُكْتَبْ بعد

كان الغبار لا يزال يعلو، لكن تحته... الأرض تتنفس.

سلمى ويحيى وقفا على حافة الجنوب.

لا أحد في الأفق، إلا بقايا خيام ممزقة، صمت ثقيل كأن الناس اختبأوا في
عيونهم.

اقتربا من نقطة تفتيش قديمة، لم تكن هناك قوات، بل لوحة مرمية على
الأرض:

"لا عبور إلا للناجين.

قالت سلمى:

– "ومن يحدد من هو الناجي؟"

لم يجب يحيى.

لكنه حمل الورقة من جيبه، ورقة إلينا.

وطواها بعناية.

ثم دفنها تحت حجر صغير.

قال:

– "الناجي مش بس اللي عاش.

الناجي... هو اللي ضلّ عنده حكاية يحكمها."

سارت سلمى بجانبه،

وقد غدت خطواتها أبطأ.

كان قلبها لا يزال هناك، في جثة أخيها التي تركوها دون دفن، في النفق، في يد إلينا التي أسندت السقف، في الوجوه التي لم تعد تطل من النوافذ.
وفي الطريق نحو الجنوب، مرًا بصبيّ وحيد، يحمل بيده قطعة خبز ناشفة، وعيناه تراقبان الغرباء.

توقّف يحيى.

أعطاه زجاجة ماء، وسأله:

— "اسمك؟"

قال الطفل:

— "فارس."

سلمى التفتت إليه:

— "لوين رايع يا فارس؟"

قال:

— "بدّي ألاقى أمي... كانت هان.

نظر يحيى بعيدًا، ثم جلس على ركبتيه وقال له:

— "طيب... ماشيين سوا. احنا بندور عالأهالي كلنا.

في الخلف، كان الدخان لا يزال يتصاعد من شرق المدينة.

لكنهم لم يلتفتوا.

لم يكن ثمة انتصار، ولا نهاية مفرحة، ولا بطولات على شكل صور.

كان هناك فقط...

بشر، مُتَكون، يحملون الذكرى على ظهورهم ويمشون.
وفي آخر السطر، كتبت سلمى بعد أشهر:
"نجونا نحن الثلاثة... واحد بجسده، واحد بروحه، والثالثة بحكايتها التي
لن تموت.
والينا... إن عادت إلى بلدها، فبلدها صار اسمه المقاومة.
وإن ماتت، فإنها أوصت بأن يُروى عنها لا كعدوة، بل كظلّ عبر الحاجز...
وأحبّ النور حين لم يعرفه."
ثم أغلقت الدفتر.
ووضعت الصفحة البيضاء الأخيرة.
ليس كل فصل أخير يعني النهاية، أحياناً... هو بداية أن يُروى ما لم يُكتب
بعد.

تمت

